تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الرابع:

الطرق الصوفية

الطرق الصوفية في الجزائر أمام جدلية فاعلية حضورها الاجتماعي والسياسي:
الموقف من الاحتلال الفرنسي نموذجا.

أ. مقلاتي عبد الله

جامعة ادرار

الملخص:

تمهيد:

عرفت ظاهرة التصوف انتشارا واسعا في الجزائر نتيجة عوامل داخلية ذاتية وأخرى خارجية، وتحتاج هذه الظاهرة إلى الدراسة والتمحيص، خاصة إذا ما عرفنا أن تأثيرها كان بالغا على المجتمع وان دورها كان فعالا في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وفي الوقت ذاته أثرت بعض الطرق الصوفية سلبا على المجتمع الجزائري ووقفت موقفا مسالما أو مؤازرا للاستعمار الفرنسي، وقد حاول الكتاب الفرنسيون الذين أولوا الظاهرة أهمية بالغة تعميم هذا الموقف السلبي على الطرق الصوفية جميعها في حين أن الطرق الصوفية والزوايا حملت لواء الجهاد ونهضت بالكثير من الأعباء الاجتماعية، وفي بحثنا هذا سنحاول الوقوف على أبعاد الظاهرة من جوانبها المختلفة، ونتعرف على حقيقة الدور الاجتماعي والسياسي الذي لعبته الطرق الصوفية في الجزائر، وذلك على ضوء دراسة موقفها من الاستعمار الفرنسي .

أولا: الطرق الصوفية في الجزائر. النشأة والخصائص:

عرف التصوف قديما بأنه ظاهرة دينية واجتماعية تعني إقبال الناس على ترف الحياة والتمسك بالعبادات ومجاهدة النفس ومحاولة إدراك الحقيقة، وقد ظهر التصوف أولا في بلاد المشرق العربي ثم امتد الى المغرب الاسلامي، ويمكننا القول ان فترة التواجد العثماني كانت العصر الذهبي لنشاط الطرق الصوفية في الجزائر [1].

وقد اختلف أهل التصوف في الجزائر حول السبل المؤدية الى التصوف وحقيقته، فكان موقف بعضهم معتدلا بالقول أن التصوف هو القيام بالواجبات الشرعية ومعرفة الله وشكره باستمرار، وان يمارس المتصوف ذلك في خلوته بحسب قدرته وبإتقان وخشوع، وأمام هذا الرأي المعتدل يزعم بعض أدعياء التصوف إن المتصوف عليه أن يمارس شعائره وطقوسه كاملة، وان ويبالغ في الانقطاع والانعزال والتضحية ويمارس طقوس الرقص والتضارب، ويستفيض في قراءة الأدعية والأوراد، وهؤلاء يمكن تسميتهم دراويش بدل متصوفة، أما المرابطين الذين يمارسون تعاليمهم الدينية بتقشف بهدف الصلاح

[1] يراجع حول تاريخ الطرق الصوفية في الجزائر. ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4، ط1 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1998. وصلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر ، تاريخها ونشاطها ، دار البراق ، بيروت .لبنان ، 2002 ،

والتقرب إلى الله فسموا بالرجال الصالحين وبالمرابطين، وهم ليسوا رجال الطرق الصوفية، وعرف في الجزائر صنف آخر هم الأشراف الذين ينتسبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة الزهراء، وكانوا يستقطبون الناس إليهم ويعلمونهم الدين ويظهرون لهم الكرامات وخوارق العادات، وبعض الأشراف كانوا مسالمين في حين ان الكثير منهم اتخذ الجهاد وسيلة لتحقيق مآربه [2] .

وقد ناهز عدد الطرق الصوفية في الجزائر ستة وعشرين طريقة، منها أربعة أنشأت في العهد الاستعماري كالسنوسية والعليوية، والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني، وبعضها مؤسس بالجزائر كالرحمانية والتجانية...، والبعض الأخر في المغرب كالطيبية والعيسوية والدرقاوية...، ومنها ما هو مؤسس في المشرق كالقادرية...، واهم الطرق الصوفية التي ذاع صيتها في الجزائر نذكر ما يلي:

1 . الطريقة القادرية:

تنسب الى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفي في بغداد عام 561 هـ، انشأت عدة فروع للطريقة في الجزائر أهمها الفرع الذي اسسه الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي عام 1200هـ، وقد كان محي الدين شيخا للطريقة في اريس وكان الأمير عبد القادر قاديريا ولكنه لم يعلن المقاومة باسم طريقته، اشتهرت هذه الطريقة بمناوئتها للاستعمار الفرنسي وقد استمرت القادرية في المقاومة وقدمت رموزا من الأبطال الأسطوريين، ومنهم سيدي محمد بن عودة في زمورة، وابن النحال في قالمة وبوتليليس في وهران، وامتد نفوذ الطريقة إلى الصحراء ففي الشرق انشأت فروع للقادرية في الوادي " زاوية عميش " والرويسات وفي نفطة التونسية، وفي الجنوب الغربيانشأ بلعربي بن قدور زاوية في تيهرت، وانشأت زاوية اخرى في افلو، ومن الصحراء الى غرب افريقيا امتدت الطريقة القادرية حيث اشتهرت بمقاومتها للفرنسيين هناك، فثار في وجههم الشيخ المختار الكنتي وأبنائه، ثم الشيخ ابن عابدين الكنتي في توات والازواد[3]، والشيخ المختار الكنتي كان له أتباع كثر في افريقيا وتصدى بشجاعة للتسرب الأجنبي، ونظرا للنفوذ الكبير للقادرية في الصحراء خططت الإدارة الفرنسية لاحتوائها، اذ تمكنت مثلا من تدجين مقدم ورقلة الذي رافق "فلامان" في رحلة استكشافه لتديكلت عام 1899 واستطاع الضابط " دي يبورتر" ان يجعل من مقدم سوف الهاشمي بن ابراهيم نصيرا لفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى. وتقدر المصادر الفرنسية أتباع الطريقة القادرية خلال عام 1897 ب 24578 اخوانيا ينتسبون إلى ثلاث وثلاثون زاوية عبر أنحاء الوطن. [4]

2. الطريقة الشاذلية:

---

[2] RINN Louis Marabouts et khouans etude sur l islam en algerie ; Alger 1884pp 69 70

[3] انظر ابو القاسم سعد الله: المرجع السابق ، ص . ص ، 42. 49

[4] المرجع نفسه ، ص 58

تنسب إلى الشيخ آبي الحسن الشاذلي، وانتشرت في المشرق والمغرب، وكان لها حضور متميز في الجزائر بفضل دعوتها للأخلاق الفاضلة وتركيزها على التوحيد، دخلت تلمسان على يد الولي الصالح شعيب بن حسين الاندلسي ومنها انتشرت فروعها المختلفة في الجزائر ومنها:

ـ الزروقية: نسبة للشيخ احمد زروق البرنوسي الفاسي المتوفي عام 899 هـ وقد كان من اقطابها في الجزائر عبد الرحمان الاخضري وعبد الكريم الفكون .

. العيساوية: نسبة للشيخ محمد بن عيسى، معروفة بطابعها الشعبي التهريجي في الجزائر

ـ الحنصالية: مؤسسها سعيد بن يوسف الحنصالي المتوفي عام 1702 م ادخلها الى الجزائر الشيخ سعدون الفرجيوي واشتهرت في عهد خليفته احمد الزواوي

. الكرزازية: تنتشر في الجنوب الغربي الجزائري اسسها احمد بن موسى الحسني المتوفى عام 1608 م

. الزيانية: مقرها بالقنادسة مؤسسها محمد بن عبد الرحمان بن بوزيان المتوفى عام 1733 وتنسب اليها زاوية رقان الشاذلة الذائعة النفوذ وان كان شيخها مولاي الحسن بن عبد غالقادر يجمع بين عدة طرق كالقادرية والتجانية

. الطيبية: يرجع تاسيسها الى ادريس الاكبر لها عدة زوايا في غرب البلاد وقد لعبت دورا سياسيا بارزا في المغرب والجزائر ...الخ،

ومن أشهر شيوخ الشاذلية في المرحلة المدروسة الشيخ الموسوم صاحب زاوية قصر البوخاري، والذي تفرغ للتعليم فيها منذ عام 1865، وسجلت عنه مواقف مناهضة للثورات الشعبية ومذمة للاشتغال بالسياسة، وكذلك الشيخ بلقاسم بن الحاج صاحب زاوية اليدوغ بعنابة الذي اشتهر بدروشته، وقد قدر اتباع الشاذلية في الجزائر بنحو 14206 .

3 . الطريقة الدرقاوية:

اصل الطريقة شذلي ومؤسسها الشيخ محمد العربي الدرقاوي المتوفي عام 1823، خالفت تعاليم الشاذلية في التسامح والحياد ازاء السياسة والمهادنة، واعطت دفعا جديدا للشاذلية بفضل حيويتها، لها عدة فروع منتشرة في الجزائر منها:

. الهبرية: ولدت نتيجة حركة نشطة في الجماعات الصوفية في مناطق غرب الوطن وخاصة في مدغرة وسعيدة ومعسكر وتيهرت، ومن منشطيها الاساسيين محمد الهبري المتوفي عام 1901 وصاحب زاوية وادي كيس في بني سناسن

المدنية: تاسست في طرابلس وادخلها للجزائر الحاج موسى الدرقاوي الذي قاد عدة ثورات ضد الفرنسيين بدء من عام 1833 والى غاية استشهاده عام 1849

. العليوية: تنسب للشيخ احمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي، وهي طريقة متأخرة الظهور وتعرف بعصريتها وبمواقفها المتناقضة احيانا من الاستعمار الفرنسي .

4. الطريقة الرحمانية:

أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان الجرجري المتوفي سنة 1793 م، انتشرت بشكل واسع في عهد خليفة مؤسس الطريقة علي بن عيسى المغربي في منطقة زواوة والزيبان وشرق الجزائر، وقد تحالفت مع الطريقة القادرية على مجاهدة المحتل الفرنسي عام 1830 وارتبطت ارتباطا وثيقا مع الأمير عبد القادر، ثم خاضت مقاومة زواوة ببطولة باسلة الى غاية نفي زعيمها الحاج عمر عام 1857 كما وجهت وشاركت عدة ثورات شعبية أخرى يأتي على راسها ثورة عام 1871، [5] وقد تولدت عنها عدة فروع خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ففي زواوة انتشرت للرحمانية عدة فروع اثر تحطيم مقر الزاوية إلام بايت اسماعيل، بعضها ينتسب للشيخ الحاج عمر الذي أسس فرعا له في منفاه بالكاف التونسية، والبعض الأخر ينتسب للشيخ محمد الجعدي الذي اختاره الإخوان شيخا للطريقة، وأمام سوء ادارة هذا الأخير للطريقة انتخب الشيخ محمد امزيان الحداد شيخا للطريقة مع الاستقرار في صدوق، وفي عهده اشتهرت الزاوية وذاع صيتها ولكنه لم يستطع توحيد جميع فروعها في زواوة، حيث ظلت منطقة المعاتقة ونواحيها موالية للشيخ الجعدي. واشتهرت في المرحلة المدروسة فروع الرحمانية في قسنطينة والخنقة والهامل وطولقة وسوف وهي فروع بعيدة عن المركز،فقد عين مؤسس الطريقة محمد بن عبد الرحمان باش تارزي مقدما في قسنطينة، وورث هذا الشيخ بركة الطريقة لابنه مصطفى واشتهرت عائلة باش تارزي فترة طويلة في قسنطينة، وقد ورثت هذه العائلة الطريقة لعالم من طولقة هو الشيخ محمد بن عزوز البرجي الذي أصبح مقدما للرحمانية في كامل الجنوب كما كان له فضل تأسيس فرع لها في نفطة التونسية بعد ان نفته فرنسا، وقبل وفاته عين مقدمين من تلامذته اشتهروا بالجهاد وهم: علي بن عمر شيخ طولقة والمختار بن خليفة في أولاد جلال، ومبارك بن خويدم في والصادق بن الحاج في الاوراس وعبد الحفيظ في خنقة سيدي ناجي. وفي عهد خلافة ابنه مصطفى ابن عزوز انشأ فرعان آخران هما: فرع الهامل ببوسعادة على يد الشيخ محمد بن بلقاسم، وفرع سوف على يد سالم بن محمد الاعرج. [6]

5 . الطريقة التجانية:

تنسب الى الشيخ احمد التجاني الذي تجول بين عدة طرق وانتهى الى طريقته الخاصة، وذلك عندما كان في عزلته الخاصة ببوسمغون [7]، ظهرت الطريقة بعين ماضي في الجزائر واشتهرت في المغرب حيث هرب التجاني بطريقته خوفا من الأتراك، وعم نفوذها غرب إفريقيا والصحراء، انتشرت

---

[5] Les confreries et les zaouias en Algerie: in revue Algerie ; Bulletin de liaison et de decumentation du gouvernement generale de l Algerie 3trim ; 1956 ;p 16

[6] انظر حول هذه الفروع بتفصيل ابو القاسم سعد الله: المرجع السابق ، صـ ص، 145. 175

[7] انظر محمد بن بلقاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ، ط1، الجزائر، 1905 ،ج2 ، ص .ص، 38. 42

بواسطة التعليم التجارة، وعرفت بتسامحها واعتدالها، وقد عارضت سياسة الأمير عبد القادر ودخلت في خدمة الفرنسيين الذين قدموا لها المساعدات الأزمة لمد نفوذها في إفريقيا، تولى ابني التجاني محمد الكبير ومحمد الصغير إدارة فرع الزاوية بعين ماضي وتوفي الأول وهو يحارب باي وهران، في حين قرر الآخر أن يسلك خيار المهادنة، وكانت بركة الطريقة في يد الحاج علي بتماسين الذي ادار الطريقة بحكمة في الجانب الشرقي من صحراء الجزائر، وقد هللت الطريقة لسقوط الاتراك اعدائها، واستعدت للدخول في وفاق مع الفرنسيين لخدمة اهداف الطريقة، ومن اجل ذلك وقفت موقفا مناوئا من الامير عبد القادر الذي حاول ان يكسب ودها ويجندها لخدمة المقاومة كما سياتي توضيحه، ويقدر الإحصاء الرسمي للإدارة الفرنسية عدد أتباع الطريقة ب 11982 فردا، ويعطي إحصاء عام 1897 عددا أضخم قدر ب 25323 فردا، مما يدل على انتشار الطريقة الواسع في نهاية القرن التاسع عشر . [8]

6. الطريقة السنوسية

تنسب هذه الطريقة التي أسست بليبا وذاع صيتها في المغرب العربي وافريقيا الى العالم الجزائري محمد بن علي المستغانمي، وهو عالم جمع بين علوم الشريعة وعلوم الحقيقة، وزار كثيرا من البلدان واستقر به الحال في برقة الليبية حيث انشأ زاوية لنشر الطريقة، وما لبث ان عمت السنوسية ربوع ليبيا وأصبحت تلعب دورا سياسيا بإشادتها لنظام حكم سياسي وعسكري أضفى على طابعها الديني خصوصية مميزة، كما أنها عرفت بمواقفها الجهادية المعادية للاحتلال الأجنبي ومنها الفرنسي في الجزائر وافريقيا، وكانت تمد الدعم لكثير من رجال المقاومة ومنهم الثائر محمد بن عبد الله الذي التقى بالسنوسي في مكة، ونسق معه الدخول إلى الجزائر واعلان الثورة، كما تتحدث المصادر الفرنسية عن شخصية تواتية عضدت السنوسية في الجنوب الليبي، وهو المقدم احمد التواتي الذي لا نعرف عن دوره الكير، وقد كان يدعوا الى الجهاد ويجند الإتباع في مرزوق وتوات وبلاد التوارق، وفي بداية القرن العشرين كان للسنوسية الدور الأساسي في تثوير كثير من المقاومات الشعبية في صحراء الجزائر خاصة ثورات التوارق وتوات أثناء الحرب العالمية الأولى، ويبدوا ان نفوذ السنوسية ارتبط بمنطقة الصحراء المقاومة في حين انه لم يكن لها حضور قوي بمناطق الشمال، حيث لم تؤسس سوى زاوية واحدة لهذه الطريقة هي الزاوية الطكوكية في نواحي مستغانم والتي أنشأت عام 1859 من قبل الشيخ طكوك الشارف، وارتبطت بالزاوية إلام في برقة وكانت محل مراقبة الفرنسيين باستمرار إلى أن داهموها عام 1876 واعتقلوا شيخها [9]

ثانيا: الدور الاجتماعي والسياسي للطرق الصوفية:

---

[8] RINN Louis , Marabouts et khouans etude sur l islam en algerie ; op cit, pp 256 . 234

[9] Ageron CH R .Les Algeriens musulmans et la France 1871 - 1919 ;paris presse universite de France , 1968 ;t1 ;p 303

لقد اقبل الجزائريون بشكل ملفت على دخول الطرق الصوفية، فاحتضنها المثقف والتاجر والحاكم، وذلك قبل قدوم الأتراك وخلال مرحلة حكمهم للجزائر خصوصا، حيث شجع الحكام الأتراك هذه الطرق لأهداف سياسية، وقد نهضت الطرق الصوفية وزواياها بدور اجتماعي وسياسي رائد، كما أكدت حضورها القوي في مواجهة الاحتلال الأجنبي وخاصة الاحتلال الفرنسي.

إن ما يجمع الطرق الصوفية على اختلافها هي تلك الخصائص والأهداف النبيلة التي تكسبها بعدا اجتماعيا وتضامنيا وإنسانيا، فهي قد جمعت فئات الناس المختلفة ووحدت بينها عبر مراحل تاريخية طويلة، وبثت فيها قيم التضامن والتسامح وحب الخير،

وقد اتسمت الطرق الصوفية بالمرونة في مبادئها وتعاليمها حتى يتسنى لها التلائم مع أفك ار الناس في كل مكان وزمان واستقطابهم كأتباع لها، كما اتسمت بجمعها بين علمي الظاهر والباطن الأمر الذي مكنها من الموازنة بين الحياة المادية والحياة الروحية .

ولعبت الطرق الصوفية دورا مهما في التربية والتعليم، وتلقين كتاب الله والسنة النبوية لفئات عريضة من المجتمع، ونهضت بذلك بمهمة الدولة المركزية التي كانت منشغلة بمواجهة القوى الأوربية الغازية، وامتد نشاطها إلى نشر الإسلام بالطرق السلمية بين الشعوب الوثنية والى الجهاد ضد الغزاة وحركات التبشير والتنصير [10].

وقد عزا كثير من الباحثين المقاومة الشديدة التي واجهت الجيش الفرنسي إلى انتماء الناس الى هذه الطرق الصوفية التي كانت تحمس للجهاد وتدعوا للمقاومة، وفي هذا الشأن يقول الباحث الفرنسي أشيل روبير: "إن كل سكان الجزائر كانوا ينتمون الى الطرق الصوفية،وهم بذلك يشكلون جيشا صلبا متدربا بمهارة، مستعدا دائما للدفاع عن البلاد ضد الأوربيين، وقد اهتم الكتاب الفرنسيون بالبحث في شؤون الطرق الصوفية قصد التعرف على المجتمع الجزائري وإخضاعه للسياسة الفرنسية، واهم هؤلاء الكتاب السيد لويس رين الذي ألف عدة كتب في الشؤون الجزائرية والذي كان مستشارا للحكومة العامة،فقد ألف كتابا مهما حول الموضوع عنوانه "مرابطون وإخوان" نشره عام 1884، وذكر فيه أن عدد الزوايا المتواجدة في الجزائر تقدر ب355 زاوية، وان هناك 1955 مقدما و167019 من الإخوان أو المريدين المعروفين لدى الإدارة الفرنسية، وهم منظمون ومنضبطون تحت لواء هذه الطرق الصوفية، وقد حقق تماسك هذه الفرق فيما بينها الى خلق جبهة موحدة كما كان لكل طريقة وزنها وخطرها، خاصة اذا كان شيخها مشهورا وسمعتها قوية ولها الكثير من الأتباع والأموال، فقد كانت تخيف الحكام سواء العثمانيين او الفرنسيين، مثلما كان الحال بالنسبة للطريقة الدرقاوية التي ثار زعيمها ابن الاحرش على العثمانيين، وثورة التجانية وهجومها على مدينة معسكر وتمردها في عين ماضي، وهذه الطرق الصوفية هي التي واجهت الاحتلال الفرنسي، وتولت راية الجهاد بعد استسلام السلطة المركزية وهزيمة جيشها

[10] انظر عبد الله عبد الرزاق ابراهيم: اضواء على الطرق الصوفية في القارة الافريقية ، ط2، المطبعة الفنية ، الجزائر ، 1990 ،ص 32

الرسمي، فكان الحاج سيدي السعدي في المتيجة والحاج محي الدين وابنه الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري ... وأسماء أخرى من شيوخ الصوفية قادوا العديد من الثورات الشعبية [11]

إن الاحتلال الفرنسي تفطن لأهمية دور هذه الطرق الصوفية في وقت متأخر، وذلك بعد أن ألف الضابط "دي نوفو" كتابه " الطرق الصوفية عند مسلمي الجزائر" فوضعت الإدارة الفرنسية مخططا لتشتيتها وضرب صفوف الطريقة من الداخل، واستعمال العصا والجزرة معا، وسياسة الإغراء والقوة، وفي هذا الإطار اجتهدت في تفتيت وحدة الطريقة الرحمانية بعد النجاح الذي حققته في ثورة 1871، وهو المصير ذاته الذي عرفته القادرية والدرقاوية، وقد أعلن في عام 1897 أن الطريقة الرحمانية مزقت إلى خمس وعشرين فرعا لا يعترف احدها بالآخر، وان الطرقة الدرقاوية تفرعت الى ثمانية فروع والقادرية إلى ستة فروع على الأقل وكان للتجانية فرعان متنافسان في الجزائر وثالث في المغرب [12]

ثالثا: موقف الطرق الصوفية من الاحتلال الفرنسي .

إن قيادة المرابطين والطرق الصوفية نهضت بدور ريادي في مواجهة الاحتلال الفرنسي، وذلك اثر في الوقت الذي تخاذلت فيه السلطات الزمنية الممثلة في الزعماء العثمانيين وحلفائهم، وقد كان الواجب الديني يحث على رفع راية الجهاد ضد الغزاة، كما أن تمسك السكان بالطرق الصوفية كان يدفع بهذه الأخيرة لان تتحمل مسؤوليتها، وإذا كان المجتمع الحضري والطبقة السياسية قد تخلوا عن خيار جهاد الفرنسيين وخنعوا للفرنسيين باستثناء احمد باي فان الريف الجزائري الذي كان مواليا للطرق الصوفية هو الذي تولى مهمة الدفاع عن الدين والعرض ورفع راية الجهاد في وجه المستعمر، وكان طبيعيا من خلال تتبع سلسلة المقاومات الشعبية ان نجد قادتها ومحركيها الأساسيين هم شيوخ وأتباع الطرق الصوفية والمرابطون،

لقد هب رجال الطرق الصوفية لمواجهة الفرنسيين منذ الأيام الأولى لسقوط مدينة الجزائر، وجندوا ورائهم سكان منطقة المتيجة لمحاصرة الجيش الفرنسي وإرغامه على الخروج من المدينة، واهم شخصية صوفية لعبت دورا مهما في قيادة الثورة هي شخصية الحاج سيدي السسعدي، والذي كان قيما على زاوية عائلته بمدينة الجزائر، وقد فاجأه نبأ الاحتلال وكان خارج المدينة فعزم على تنظيم ثورة عارمة جند لها شيوخ الزوايا ورؤساء القبائل، وعلى الرغم من كفائته وخبرته فقد كان طبيعيا ان يستغل الرؤى الصوفية، فقد أنبأ أتباعه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطاه في منامه راية الجهاد واخبره بقرب انهزام الفرنسيين وخروجهم من الجزائر [13]، وكانت هذه حجة قوية لإقناع السكان وتجنيدهم للجهاد تحت رايته، وقد ربط الاتصال بالزعماء الدينيين، فأزره شيخ زاوية المعاتقة علي بن موسى وشيخ قبيلة فليسة

---

[11] Les confreries et les zaouias en Algerie: in revue Algerie ; op cit ; p 22

[12] انظر ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4، مرجع سابق، ص . ص 31 . 32 . وصلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر ، تاريخها ونشاطها ، دار البراق ، بيروت . لبنان ، 2002 ، ص 330 . 336

[13] انظر ابو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية ، ج1، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1992 ، ص126

محمد ابن زعموم، وسانده بعد فترة أغا العرب محي الدين ابن المبارك شيخ زاوية القليعة، واستطاعت مقاومة المتيجة أن تحقق نجاحات عسكرية باهرة وان تفرض حصارا محكما على الفرنسيين داخل أسوار مدينة الجزائر، وان كانت القوات الفرنسية استطاعت ان تلحق الهزيمة بالثوار إلا أن اغلب الزعامات التحقت بصف مقاومة الامير عبد القادر خلال سنتي 1833 . 1834، وتقوت أكثر عندما عين الأمير الحاج السعدي خليفة له على منطقتي المتيجة وزواوة، حيث واصلت محاصرتها للجيش الفرنسي وجنت ورائها الجماهير الواسعة وضربت على أيدي الزعماء السياسيين الذين قبلوا بمناصب العدو[14].

وقد كان مبدأ الجهاد الذي نهض به محي الدين وابنه عبد القادر يستند الى الدفاع عن دار الإسلام ومجاهدة الكفار، وكان لابد لهما من سلطة ليجيبهما الناس، إن الأمير عبد القادر لم يكن من رجال السلطة العثمانية ولم يكن زعيم قبيلة كبيرة تكسبه سلطة وإنما بويع أميرا للمؤمنيين كون والده كان شيخا لطريقة صوفية هي الطريقة القادرية وكان يحظى بمكانة وسلطة روحية قوية، أهلته لان يقصده زعماء القبائل ليقودهم في الجهاد بعد أن تخلى الأتراك عن مجاهدة الغزاة الفرنسيين، غير أن الأمير عبد القادر تصرف بعد مبايعته كرئيس دولة وليس مجرد شيخ زاوية وأراد أن يوحد الشعب الجزائري ويشيد مؤسسات الدولة التي تحتضن مريدي الطرق الصوفية وغيرهم، واضطر لان يحارب بعض الطرق الصوفية وأرغمها على الخضوع لدولته وليس لطريقته وعاقبهم على تعاونهم مع العدو كما فعل مع التجانية مثلا، وفي الوقت ذاته وظف الأمير عبدالقادر الطرقية لخدمة مشروع الدولة ومقاومة المحتل ونجح في ذلك الى حد بعيد . ومثال تحالفه مع شيوخ الرحمانية في زواوة خير دليل على ذلك[15]

وبعد سقوط قسنطينة عام 1837 سيظهر بشكل جلي تخاذل السلطة الزمنية في أمثال المقرانيين وأولاد بن قانة ونهوض الطرق الصوفية بمهمة المقاومة، ولاسيما الطريقة الرحمانية التي تحالفت مع الأمير عبد القادر الى غاية انهزامه عام 1847 وتولت بعده حمل لواء المقاومة في منطقة القبائل، إذ شاركت زوايا الطريقة في مختلف الثورات التي عرفتها زواوة بدء بثورة بومعزة الى ثورة الشريف بوبغلة الى ثورة لالا فاطمة نسومر، وكان دورها أبرز في انتفاضة عام 1871 حيث أعطى الشيخ الحداد لثورة المقراني بعدا روحيا وعضدها بأتباعه الكثيريين، وساهمت فروع الطريقة الاخرى في الثورات الشعبية، فخاض مصطفى ابن عزوز وأبنائه ثورات متواصلة ضد الاحتلال الفرنسي لبسكرة، ونظم الشيخ محمد امزيان ثورة الزعاطشة الباسلة عام 1849، وقاد الصادق بن الحاج ثورة في الاوراس، والشيخ عبد الحفيظ ثورة في خنقة سيدي ناجي... .[16]

---

[14] انظر جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1994 ،ص 106

[15] Ageron CH R .Les Algeriens musulmans et la France 1871 – 1919 ;op cit ,t1 p 309

[16] انظر ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ج4، مرجع سابق ، ص34. 35، 147

وكان للطرقة الدرقاوية دور مهم في رفع لواء المقاومة، وذلك على الرغم من تردد شيخها العربي بن عطية ومسالمته للفرنسيين، فقد سجل الشيخ موسى الدرقاوي مواقف بطولية وهو يجاهد بنواحي الغرب والوسط الجزائري الى ان استقر به المقام بواحة الزعاطشة التي استشهد بها عام 1849[17] .

وأما الطريقة الطيبية التي كانت تنتشر في الغرب الجزائري فقد اسهمت في الجهاد بفضل الشريف بومعزة الذي قاد ثورة عارمة بالشلف عام 1948، وكذا بفضل ثورة بوعمامة بالجنوب الوهراني، واعتبرت الطريقة السنوسية من اخطر الطرق الصوفية الثائرة على الفرنسيين خاصة في الصحراء، وقد ظهرت الطريقة في ليبيا وامتد تأثيرها الى الجزائر نهاية القرن التاسع عشر، وأزرت ثورة شريف ورقلة محمد بن عبد الله وثورة ناصر ابن شهرة، وقدمت الدعم لثورة الهقار خلال الحرب العالمية الأولى وأصبح مقدموها يجوبون الصحراء ويبعثون الرعب في صفوف الفرنسيين.[18]

ونسجل عموما أن المواطن الذي خاب أمله في الزعماء السياسيين بدأ يبحث عن منقذ لبلاده، ووجد بعد عام 1847 في الطرق الصوفية خير منقذ فارتمى في أحضان الصوفية ليعيش في عالم الروح وعالم التخيلات هروبا من الواقع المر الذي أصبح علية حال البلاد، وهذا ما يفسر تعلق المواطنيين بالطرق الصوفية عند اغلب الباحثين وأتباعهم لتعاليمها ومطالبها مذعنين حتى عنهم التعبير الشهير "ما يأمرني به الشيخ اعمله، ولو أمرني بالإفطار في رمضان لفطرت " ولكن الخلاص المأمول لم يتحقق لان شيوخ الطرق الصوفية والمرابطون والإشراف فشلوا في مقاومتهم الواحد تلو الاخر، من بومعزة الى بوبغلة إلى لالا فاطمة نسومر واو لائك الذين تسموا محمد بن عباله وهم كثيرون، وعلى الرغم من ذلك بقي تمسك المواطنيين بالطرق الصوفية قائما، وقد عزى الباحثون ذلك إلى التأثير البالغ الذي كان يفرضه المتصوفة والى اليأس الذي أصبح عليه حال المواطنيين، وفي هذه الظرفية استطاعت الإدارة الفرنسية أن تنفذ مخططاتها بتدجين بعض الطرق الصوفية وكسبها إلى صفها لتصبح أداة تفتيت للصف وجهاز استغلالي يعمل في ركاب الاستعمار، وهذا الامر حول الطرق الصوفية من مؤسسات مقاومة إلى أداة للإدارة الفرنسية في السيطرة على السكان وميع مهمتها لتغرق في ظاهرة الشعوذة والدروشة .

الخاتمة:

وعلى ضوء ما سبق عرضه نخلص إلى تأكيد النتائج الآتية:

---

[17] انظر ابو القاسم سعد الله: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ،ج1 ، مرجع سابق ، ص 263

[18] انظر يحي بوعزيز: ثورات الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرون ، منشورات متحف المجاهد، الجزائر ، 1995، ج2،ص 28،

. ان الجزائر كغيرها من شعوب العالم الاسلامي عايشت بتفاعل ظاهرة التصوف، واسهم علمائها في نشر مبادئها وأفكارها وممارساتها التي خلفت اثأرا ايجابية على لحمة وتماسك المجتمع، وبفضل جهودهم انتشرت مختلف الطرق الصوفية عبر ربوع الوطن.

ـ لقد أكدت الطرق الصوفية في حضورها الفعال في مختلف مجالات الحياة، ونهضت بكثير الأعباء الاجتماعية والدينية، ومنها التعليم والتثقيف، ونشر الأخلاق الفاضلة وتوحيد كلمة المسلمين، ونشر الإسلام ومواجهة الأخطار الأجنبية المحدقة ببلاد المسلمين كالغزو والتنصير والتبشير ...الخ .

ـ إن اغلب الطرق الصوفية رفعت راية الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي، ووحدت كلمتها على مواجهته بمختلف السبل الممكنة، ونجحت بعض الطرق الصوفية في تحقيق نتائج باهرة في هذا المجال كالقادرية والرحمانية والسنوسية، الأمر الذي دفع الإدارة الفرنسية إلى عدم الاستهانة بقوة هذه المؤسسات الدينية فعملت على تدجينها وتشويه صورتها، وان كانت حققت بعض النجاح إلا إن الطرق الصوفية على اختلاف مواقفها كان لها دور بارز في المقاومة الثقافية ومحاربة الإدماج والمحافظة على قيم المجتمع وشخصيته المسلمة، وذلك عن طريق التعليم والتضامن الاجتماعي والسياسي.

. قائمة المصادر والمراجع:

أ . باللغة العربية:

. ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998.

. ابو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1992،

ـ جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994،

. صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت . لبنان، 2002،

. عبد الله عبد الرزاق ابراهيم: اضواء على الطرق الصوفية في القارة الافريقية، ط2، المطبعة الفنية، الجزائر، 1990،

ـ محمد بن بلقاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ط1،مطبعة فونتانة، الجزائر، 1906،ج2 ـ يحي بوعزيز: ثورات الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرون، منشورات متحف المجاهد، الجزائر، 1995، ج2،

ب . بالغة الاجنبية:

- Ageron CH R .Les Algeriens musulmans et la France 1871 - 1919 ;paris presse universite de France , 1968 ;t1 ;

- RINN Louis Marabouts et khouans etude sur l islam en algerie ; Alger 1884

- Les confreries et les zaouias en Algerie: in revue Algerie ; Bulletin de liaison et de decumentation du gouvernement generale de l Algerie 3trim ; 1956 ;